الأم الصغيرة ـ الكبيرة

كانت ، نايفة نجار ، لمن يعرفها من بعيد ، مجرد مواطنة عادية ، مثل آلاف بل ملايين المواطنين ، في هذا البلد ، تحمل دمها على كفها كل صباح ، وهي تنتقل من بيتها الى مركز عملها ، وبالعكس .

كانت تحوك بأناملها الدقيقة ، وبعرق جبينها ، وبسهرها الدائب في مواجهة همومها الصغيرة ، التي هي جزء من هموم هذا الوطن ، ثوباً تحاول ان تجعله دافئا وكريما لوحيدها الذي ربّته ، كل شبر بنذر ، بعد ان فقدت زوجها عدنان حماده ، وهي لما تزل عروسا ، في حادث مؤسف ، فيما هو يسعى لتحصيل لقمة العيش.

وكانت الصدمة كبيرة كبيرة بالنسبة لنايفة ، إلا انها لم تكن قاتلة . فهذا علّي يدرج امامها ، صورة مصغرة من ابيه الراحل ، ترعاه وتراعيه ، تلاطفه وتتلطف به ، تربته وتربيه ، حتى اصبح رجل البيت ، بكل معنى الكلمة .. وهي الأم المتفانية في حبه ، الحريصة على مستقبله ، القانعة من هذه الحياة برؤيته امامها وبجانبها صحيح انها كانت ضئيلة الحجم ، الا انها كانت ، لمن يعرفها عن كثب ، كتلة من الحيوية والنشاط ، كبيرة القلب ، عالية الهمة ، محبة لكل من وما حولها من ناس وكنا نحن ـ اصدقاءها ومعارفها ـ نستمد التفاؤل من بسمتها ، والأمل من تعلقها بالحياة ، والحب من حبها لابنها وشعبها ووطنها . وكنا نغبطها باستمرار على هذا.

* * *

وكان السادس والعشرون من آذار نقطة انعطاف كبيرة في حياة نايفة نجار .

في ذلك اليوم الاسود كان علي : وحيدها ، ورجلها ، ومحط آمالها ، ينتقل من ، القماطية ، التي طالما احبتها وغنتها وتغنت بها (كانت ، رحمها الله ، ذات صوت رخيم) الى بيروت ، للقاء امه ، غير انه لم يصل .

فجاة ضاع علي من حياة امه ،

وفجاة اصبحت نايفة نجار فريسة للضياع ، والهواجس ، والجنون .

ومنذ ذلك اليوم لم تترك نايفة نجار وسيلة الا واتبعتها ، او بابا الا وطرقته ، على امل ان تسترد ابنها ، او تسمع شيئا منه او عنه ، ولكن عبثا .

الكل يسمع الحكاية التي ترويها بالحرقة والدم . والكل يعلن تضامنه معها ، وتاييده لها ، ولقضيتها الانسانية العادلة . ولكن .. لا احد يفعل شيئا .

* * *

يوم السادس والعشرين من آذار ماتت نايفة نجار .

ماتت حين مات الامل في قلبها ، وحين خبت البسمة من على شفتيها .

وظلت تسعة اشهر طويلة تجتر المرارة والالم وخيبة الامل . كانت تتخيل اطلالة ابنها مع كل دقة جرس ، وترى خياله يحوم حولها في كل زاوية من زوايا البيت او المكتب ، وفي حنايا كل شارع وعطفة ، وفي رنة كل هاتف . وكانت صورته ترتسم على صفحة كل كتاب ، وفوق كل مقعد في اي صف ، من اي مدرسة .

ولان ذلك كله كان مجرد اوهام ، وقبض ريح ، فقد وضعت نايفة نجار موتها المؤجل ، موضع التنفيذ ، بعد تسعة اشهر طويلة طويلة من الوعود العرقوبية ، والتعلق بالاوهام الكاذبة ، ومعايشة الموت البطيء الذي لا يرحم !

.. وعسى ان تتمكن نايفة نجار بموتها البليغ ، من ايصال ندائها المتفجع الى قلوب الخاطفين ـ واسيادهم ـ حتى لا يتردى ذوو المخطوفين في بحار الياس والضياع ، كما فعلت شهيدتهم الاولى .. وليتها تكون الاخيرة ! .

محمد زيد